كوليرج

للكاتب الناقد. اى. ل. كيلركوج

بقلم الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

من العسير علينا أن نكتب حياة كوليرج ، أو بمعنى آخر أن هذا العسر سيزداد ويشتد باطراد كلما حاولنا التغلغل فى ماهية هذه الحياة ، وذلك بسبب نكسات الإرادة التى أصيب بها وعللها المختلفة ومعايبها المتعددة ، وهذه الحقائق التى يتطلب منا البحث النزيه ذكرها وتسجيلها هى التى ستضفى ظلالا داكنة على ذلك الوجود الحى الجميل الذى شهد بعظمته جميع معاصريه ؛ ومع ذلك يقتضينا الحق والإنصاف أن نركن إليها حتى نكون قد أدينا واجبنا حق الأداء . زد على ذلك أن هذه السيرة صعبة الإدراك ، لأن كثيراً ممن سيطالع دقائقها سينكر سماحة كوليرج ولطفه ، وسيقتصر على مآسى حياته الظاهرية ناسيا بذلك أحسن ما فيه ، أعنى كوليرج الحقيق ، كوليرج المحب الإنسانى السمح ، الذى سعى جاهدا لمعالجة أدوائه بشغف وحب ، والذى كان فى أشد الشوق لكى يفتح عيون الناس على الجمال الأسنى فى براءة وإيمان عميقين ، وفى خفر ونزاهة بارزتين . مع أنه تلقى حكم الديمونة القاسية ببرودة (كشخص تائه فى وسط البهاء والإشعاع اللذين كانا ينبثقان من ذهنه الوقاد فى جلال وسمو)

فقصته لا تثير المزاج ولا تغيظ الطبع وحسب ، بل إنها تراوغ الفهم نفسه ، فتجعل حتى القارئ الهادئ الرصين فى حيرة من أمره ، كما حدث لأوديسوس بعد محاولته الثالثة لمعانقته والدته فى (الظلال) . لأن العناية الربانية كما يقول دى كوزى (وضعت أمامه احتياطا دائما من المشاق فى طريق حياته) ولو تتبعنا أثر الرجل والتقينا بزرافات من أصدقائه وسألنا أى رجل منهم لكان جوابه : (كوليرج ؟ ذلك الصديق المدهش ؟ لقد كان هنا قبل مدة وقد ساعدناه فى سفره قليلا . لقد أخذ المرحوم جيمس كامبل على نفسه أن يكتب حياة كوليرج بحماسة وصدق ، وقد أدى هذا الواجب خير أداء وبنجاح تام (وعلى القارئ أن يرجع إلى كتابه (حياة كوليرج) ليرى البرهان بعينه) ولم يكتف كامبل بذلك بل أنه أكرم ذكرى الشاعر (فى هذا الجانب الوثنى من الكون) . ومع ذلك ، فلو أننا اقتفينا أثر قصته الملخصة خطوة خطوة لرأينا ازدياد

التدريس . وعجمت عوده فألفته لا هشا ولا رخوا ، وامتحنت معدنه فإذا هو معدن القوة الكامنة فى قرار المحيط أو الثورة القابعة فى سكون الصحراء . ولم تكن طريق المازنى فى الصحافة سهلة معبدة ، وكان بطبيعته المتمهلة الدؤوب لا يحسن الركض ولا يدين به ، فهو لم يصل إلى مكانته إلا خطوة خطوة وفى هينة وأناة وإلا بعد طول التوقل والإصعاد . وكانت تزداد مع الأيام أعباؤه ومتاعبه فلا يزداد إلا فرط جلد واحتمال ، أو فرط سخرية واستخفاف . وقضى المازنى الفترة الأخيرة من حياته على رغم الشيخوخة الزاحفة لا يترفق بنفسه ولا يرحم كبرته فكان أكثر الكتاب الصحفيين إنتاجا . واستكتبته الصحف على اختلاف ألوانها ونزعاتها فلبى رغباتها وإن لم ينزل إلى مستواها ، بل كان يلقاها فى منتصف الطريق ، ويحاول التوفيق بين طبيعته الفنية وبين الاتجاه الغالب على الصحافة وهو اتجاه القراءة السريعة الخفيفة . ولقد قال فى هذا إن جانب الصحفى طغى على جانب الأديب فيه . ولا مراء فى أن السرعة كان لها أثرها ، أو جنايتها على بعض إنتاجه الأخير . على أنه أصح من ذلك أن يقال إنها جناية الصحافة فى عمومها على الأدب فى عمومه . ولم يكن المازنى ضحيتها وحده ، فقد شملت الجيل بأسره ، وأدركت طوائف القراء كما أدركت طائفة الكتاب

(يتبع) محمد محمود حمدان

الشكوك الحائمة فى ذهن الكاتب مما اضطره أن يعلن فى النهاية قوله : (إننى إن كنت لم أقدم — فيما اعتقد حقا — إلى مايؤول — على العموم — إلى مايرفع من قدر كوليرج فى عيون الناس فإننى أعترف بجريرتى بشعور الدهشة وخيبة الأمل) ويستطرد المؤلف المذكور قائلا : (إننى على يقين بأن هذا الهيكل القدس ، على ما فيه من أنقاض ممتزجة بالرخام أبهى مما يمكن أن نشيده نحن من هـذه الأحجار المتناثرة هناوهناك فى الحقول والطرقات) . لقد كان كوليرج تبريرا أمينا صـادقا لوجوده . فالرجال والنساء الذين لم يشاركوه فى قصوره ومعايبه لم يتوددوا إليه ولم يتقربوا منه فقط ، بل أنهم أحبوه وأكرموه واتبعوه مسرورين . فقوة الجاذبية هذه هى التى يمكن اعتبارها شاملة عامة — على اختلاف الطبائع والمشارب التى كانت تؤثر فيها وتسحرها — هى وحدها الدليل القاطع والبرهان الناصع على القابليـات الفريدة التى كان يمتاز بها . لنا أن نقرأ ونعيد قراءة حياته ولـكننا لا يمكن — مع كل هذا — أن نعرفه كما عرفه آل (لامب) أو آل (وردذ ورث) أو (بول) أو (هوكمان فرير) أو (جلمان) أو (غرين) لأن البغض أعمى كالحب سواء بسواء . ولـكن الصداقة لها عيون مفتحة وشهادتها كفيلة بإقناعنا إن نحن استعملناها بحـكمة لتصحيح انطباعاتنا وآرائنا)

* * *

ولد صموئيل تايلور كوليرج فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٧٢ فى مقاطعة (أوترى فى ديفون شاير) وكان أصغر تسعة أبناء من زواج ثان . وكان والده المحترم جون كوليرج رجلا شفيقا وعالما متتبعا منقبا شارد الذهن معروفا بعدم واقعيته . وقد نشر عدة كتب بعد أن جمع اشتراكات من قرائه مقدما ، كما حاول إصلاح قواعد اللغة اللاتينية . وقد توفى فى سنة ١٧٨١ وبعد انقضاء عدة أشهر تمكن صموئيل الصغير من الحصول على القبول فى كلية (كرايست) . وقد صور شـارلس لامب هـذه المدرسة وكوليرج تلك الأيام تصويرا خالدا . وقد كان كوليرج أكبر من زميله تشارلى بسنتين ، ومع ذلك فقـد بزه فى مضمار الدراسة وسبقه فى سلم التقدم وحصل على درجة أعلى منه بعدة أشهر . ففى مقالة تشارلس الآنفة الذكر والموسومة بـ (كلية كرايست قبل خمس وثلاثين سنة) نجـد تلك الأساليب البارعة والنكت اللطيفة التى تحبب إلينا تشارلس ، نجدها باعترافه الصريح تخالف مقـالته (ذكريات كلية كرايست) وتشير من طرف خفى إلى ذلك الشاب الذى فقد حنان والديه وأهـله . فيقول : (كنت صبيا فقيرا لا صديق له . فأهلى ومن يجب عليه أن يعتنى بى بعيدون عنى . أما معارفهم فى المدينة الـكبيرة[1] والذين اعتمد عليهم أهلى وأحسنوا فيهم الظن ، ولـكن هؤلاء المعارف خيبوا ظن أهلى ، لأنهم تخلوا عنى بعد أن تنازلوا واستقبلونى فى أول زيارة لهم لاستثقالهم لزيارتى فى العطل ظنا منهم أن زيارتى هذه ستتكرر كثيرا . وهكذا بعد لأى شـعرت بالوحدة القاتلة تلفنى بأذيالها بين أترابى الـكثيرين . يالالظلم ! كيف يمكن أن يحول حائل بين طفل فقير وبين بيته الذى ترعرع فيه ؟ وما أشد الحنان الذى كان يساورنى تجاه ذلك البيت وتلك الحيرة فى تلك السنوات العجاف ! وكيف أن بلدتى الأصلية تعاودنى فى أحلامى بكنيستها وأشجارها ووجوهها ! وكيف أنى كنت أستيقظ باكيا وفى قلبى ألم ممض وشوق جامح لرؤية (كالن) الجميلة فى (ولتشاير)

وطبيعى أن يكون الصبى هو كوليرج بالذات و (فالن) الجميلة هى (أوترى) فى ديفون ولـكن بصورة مقنعـة ، ومن الواضح الجلى أن كوليرج شعر بهـذه الوحدة : لأن طبيعة مرهفة الاحساس كطبيعته لايمكن إلا أن تشعر بها بكل حرارة وبكل قسوة وقد ذكر ذلك بحزن مروع فى قصيدته (البرد فى منتصف الليل) كما أنه وعد ابنـه بحياة أسعد . ومن الحق أن نقول إنه لم يشعر بذلك طوال

(١) يقصد الـكاتب لندن

حياته . لأن رسائله الأولى تتضمن بعض التلميحات والإشارات إلى الأمور العرضيـة والتافهة ، ثم نرى لهجة هذه الرسائل تتغير تبعاً لنموه الروحى والفكرى فتتحول إلى ذكر أشياء أخرى. وقد قال فى سياق إحدى رسائله : (أرجو المعذرة إن ذكرتكم بأن عطلتنا ستبدأ فى الأسبوع المقبل ، وإننى سأخرج للنزهة لمدة أيام ، فاطلب أن ترسلوا لى سروالا جديدا ، لأن ذلك سيكون شيئاً لائقاً بمظهرى وخصوصاً لأننى مضطر إلى الظهور أمام النساء) . وأصبح فى الوقت اللائم إغريقياً ، فوقع فى أحبولة الحب ونظم شعراً صبيانياً فى هذا المعنى . ولو أن الغرام وما تبعه من نظم الشعر ، لم يكن ذا شأن يذكر فى عنفوان شبابه ، إلا أنه قدر لكل هذا أن يكون له أعظم التأثير فى الفترة التى تلت هذه الحقبة الجامحة من حياته . أما الفتاة التى علق بها والتى أوحت بكل هذا فكانت تدعى الآنسة (ماري ايفانز) وهى ابنة أرمل وأخت أحد أتراب كوليرج الذى كان يمتز بصداقته كثيرا

يقول كوليرج متذكراً تلك الأيام (أواه ! ما أجمل ساعات الفردوس بين السادسة عشر والتاسعة عشر من سنى العمر ، حيث كان (ألن) (تلميذ مدرسة) وأنا نحرس إيفانز فى طريقها إلى البيت فى أمسيات السبت ، وقد كانت فى تلك الأيام تشتغل فى معمل للقبعات النسوية ... وكنا معتادين أن نحمل إلى هناك فى صبيحة كل يوم من أيام الصيف باقات الأزهار الناضرة . ولكن الوحى لم يأت كله من مارى ، بل ان ابنة ممرضة المدرسة شاركتها فى ذلك ، وقد وجه شاعرنا قصيدته (جتيفياف) اليها . ويقول كامبل فى ذلك ما يلى : (كانت العادة المتبعة فى ذلك الوقت تجيز للطلبة المتقدمين أن يرتبطوا بأولئك البنات الصغيرات ارتباطاً غرامياً) . أما مارى فقد أعانت (وليم لسل باولز) على إيقاظ القابلية الشعرية لديه ، كما يشرح لنا ذلك الفصل الأول من كتاب (البيوغرافية الأدبية) [٢] ،

وقد وجد النقاد على اختلافهم موضعاً للدهشة والاستغراب فى كل هذا ، إلا أننا لا يجب أن ننظر إلى ذلك بشئ من هذا القبيل

ولنبدأ الآن بباولز ، فان أغانيه على علاتها ليست رديئة ، وأكثر من ذلك ، فهى تشير ولو بصورة شاحبة إلى الفجر الذى انبثق فى حياة الشعر الانجليزى . ولا شك أنه لو حدث أن وقع فى يدى كوليرج شئ من شعر (بليك) أو (كاولى) أو (برنز) ، وهو على عتبة السنة السابعة عشرة من عمره ، لتبدلت قصة حياته ولكان تحوله أجمل إيقاعاً وأحسن نتيجة . ولكن حدث فى سنة ١٧٩٠ أو حوالى ذلك أن ظهرت إلى الوجود الحركة الشعرية الجديدة ، وقد سرت عدوى هذه الحركة سرياناً هائلا جارفاً ، وكان إقبال الشباب عليها شديداً جداً ، ولم يكن ينظر الشباب إلى مصدر ذلك قطعاً ، بل إنه التمس فيها عوناً له فى حيرته التى كان يتخبط فيها [٣] ، ولو أن كوليرج استمد فكرته من مصدر قوى آخر لتغيرت نتائج تفكيره ولأصبحت حياته أكثر تهوراً وأشد عنفاً وغلياناً . أما وقد وقع الأمر كما كان ، فان (الأغانى) البريئة ومجتمع عائلة إيفانز تعاونتا على إبعاده من الميتافيزيقا واللاهوت اللذين أمداه بغذائه الروحى فى وقت مبكر من حياته ، وكان هذا الابعاد رقيقاً لطيفاً (بحيث لم يشعر به) . وقد اعترف كوليرج بفضل باولز لأنه كما يقول (أدى له فضلا لا يوازيه إلا فضل الكتاب المقدس) ، ومع ذلك فان محاولاته فى نظم الشعر كما اعترف بذلك نفسه فى استكانة واستحياء لم تخرج من طوق ما تعارف عليه الأقدمون من أوزان ومقاييس وبحور . وفى كانون الثانى (يناير) سنة ١٧٩١ وافقت لجنة الوكلاء بكلية (كرايست) على السماح له بالالتحاق بجامعة كيمبردج ، وكانت بداية عمله هناك ودراسته جيد جداً بحيث أنه نال وساماً ذهبياً فى سنة ١٧٩٢ اقصيدته الرائعة فى ذم تجارة الرقيق ،

(٢) الحياة الأدبية

(٣) من كلام المترجم